الفصل الثالث

سيرة الرسول
فى تصوّرات الغربيّين
(١)

● **تمهيد :**

يعد هذا البحث امتدادا للبحث السابق الذى ترجمنا فيه بعض الفصول ـ المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الاسلام ـ من كتاب المستشرق الألمانى (جوستاف بفانموللر Gustav Pfannmueller) . موجز فى أدب علوم الاسلام (Handbuch der Islamliteratur) الذى ورد فيه المؤلف أهم المراجع فى علم الاسلاميات فى الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا ، وقام بتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع .

وفى الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام(١) . ونظرا لطول هذا الموضوع فسنضطر الى تقسيمه الى حلقات ، وذلك بهدف وضع صورة اجمالية ـ أمام الباحثين ـ للتصورات الغربية بصفة عامة والتصورات الاستشراقية بصفة خاصة فى المجالات الأساسية المتعلقة بالاسلام ونبيه وتعاليمه ، لعل فى ذلك ما يدفع بعض الباحثين الى التوفر على دراسة هذا الجانب فى التراث الغربى .

واذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا ، فلا أقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التى من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا . ومن هنا تتضح حاجتنا الماسة الى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا فى السابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هذه الكتابات تمس

---

(١) انظر الصفحات من ١١٥ الى ١٢٥ . ومن ١٥٠ الى ١٥٦ . ومن ١٦٨ الى ١٩٦ من كتاب بفانموللر .

OBEIKAN.COM

اقدس ما لدينا ، تمسنا فى اخص خصائصنا وهو عقيدتنا التى نعتز بها ، وتمس شخص نبينا الذى جعله الله لنا « أسوة حسنة » وتمس قرآننا الذى جعله الله « **تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**»(٢) ، وتمس سنة نبينا التى هى مصدرنا الثانى للتشريع ، وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الاسلام ونبيه قد دخلت الى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها باساطير العصور الوسطى عن النبى ﷺ ، ولكنها مع ذلك لا تزال وستظل جزءا اساسيا من تراث الغربيين لابد لنا من الاطلاع عليه ومعرفته .

ومن المعلوم أن الكتابات الغربية عن الاسلام ونبيه تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الاسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والانصاف ، بين الاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل .

ونحن اذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه احيانا من أوصاف شنيعة للنبى ﷺ ، وهجوم دنىء عليه وعلى دينه ، دون أن نحذف من ذلك شيئا ، فذلك لاننا على يقين من أنه لن يجدى نفعا اخفاء شىء من ذلك ، فهذا الكلام منشور بشتى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعامة فى شىء اخفاء راسها فى الرمال ظنا منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد ، فكذلك لا يجدينا فى شىء أن نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ، لأننا بذلك لن نستطيع أن نمحوه من تراث الغربيين ، أو نبعده من رفوف المكتبات فى بلاد الغرب المختلفة ، أو نمنعه من الوصول الى أيدى الباحثين .

وسيلاحظ القارىء فى ثنايا النص الذى ننقله هنا تكرارا لبعض الأمور ، وخاصة للأسطورة التى نسجها خيال الغرب حول وفاة محمد ﷺ . والسبب فى هذا التكرار يرجع الى أن بفانموللر يعرض هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الأساطير حيث يعزف الجميع نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل هذه الأساطير فى تلك الأزمنة التى احتفلت بهذا اللون من الأساطير .

---

(٢) النحل : ٨٩

OBEIKANDI.COM

والفصول المختارة التى نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف اية هوامش أو عناوين جانبية ، وسنسمح لأنفسنا بتقسيم الموضوع الى فقرات ووضع عناوين خاصة لهذه الفقرات تحمل فى أغلبها اسم الكاتب الذى تتناوله كل فقرة على حدة . وبالاضافة الى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الاسلام ونبيه ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .

* * *

OBEIKAN.COM

ترجمـة وتعليقـات

١ ـ فكتور شوفان (Victor Chauvin) :

يقـدم لنا (فيكتور شوفان)(٣) فهرسا مفصـلا للكتابات التى صدرت حول محمد وذلك فى الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية أو المصنفات المتصلة بالعرب »
(Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes)

وفى القسم الأول من هـذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، أى المؤلفات التى صدرت حول محمد فى الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . وبجانب ذكره لعناوين هـذه المؤلفات بكل دقة فانه يقدم لنا ايضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير الى أهم ما وجـه اليها من نقـد .

أما القسم الثانى فانه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصـة المؤلفات البيزنطية والأسبانية ومؤلفات القرون الوسطى .

وفى القسم الثالث يتناول رسـائل جامعية حول بعض المسـائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع(٤) ، فاطمة ، نساء محمد ،

---

(٣) فكتور شوفان (١٨٤٤ — ١٩١٣) مستشرق بلجيكى ، تخرج من جامعة ليج(Liège) ، وعمل أستاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار اليه فى اثنى عشر جزءا ، أصدر منها أحد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر (بولن) الجزء الثانى عشر فى عام ١٩٢٢ .

(٤) لعل القـارىء يلاحظ هنا أن موضـوع « الصرع »مقحم بين هذه الموضوعات التى تتحدث عن سـيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا ربما يدور حول خطأ مطبعى أو خطأ فى الترجمة ! ولكن الأمر ليس كذلك . فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، اذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله الى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنها كانت عبارة عن نوبـات من الصرع تعتريـه بين الحـين والحـين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالى فليس هناك أصـلا — فى زعمهم — وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل فى باب التعصب الأعمى الذى هو نفسه مرض لا أمل فى شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة أخرى عن هذا الموضوع فى تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

شجرة النسب ، المعجـــزات ، وفاة محمـد ، مولده ، نبالة نسبه ، أسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه .... الخ(٥) .

وأما القسم الرابع فانه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد فى الأدب . أما ختام الكتاب فيتكون من تقييم للمؤلفات واضافات وتصويبات وملحق (يتضمن قائمة بأسماء المؤلفين العرب من كتاب السيرة المحمدية طبقا لما أورده بروكلمان) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوفان جهـدا هائلا فى جمع المـادة ، ولكن الموضوعات قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمنى .

وبالمناسبة فان كل المؤلفات حول الاسلام تكاد جميعها أن تكون مشتملة على أوصاف لحياة محمد (ص ١٦٤ ـ ١٩٨)(٦) وعلى مادة ببليوجرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

* * *

● **مؤلفات أخرى :**

وفى بحثه عن : « محمد وأصول علم الاسلاميات »

(Mahomet et les origines de l'islamisme)

يصف « رينـان »(٧) الأفكار المختلفـة ـ التى كونتها العصـور

---

(٥) أورد شوفان هـذه المسائل حسب الترتيب الأبجـدى فى الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه عن مولده . وقد انتقد بفانموللر هذا الترتيب ـ كما سيأتى بعد قليـل ـ .

(٦) هذه اشارة الى صفحات من كتاب (بفانموللر) الذى نترجم منه هـذه الفصول ويدور حديث بفانموللر فى هـذه الصفحات حـول المؤلفات الحديثة فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٧) ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) وقد ترجمه الى العربية عادل زعيتر . وفيه يذهب رينان الى القول بأنه لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو . ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع (الفه فى أحد الأديرة اليسوعية فى لبنان) . =

والشعوب المختلفة عن محمد ـ وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ . ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا الا بعض الاشارات .

ويقدم لنا (سنوك هورجرونيه S. Hurgronje) (٨) فى حديثه عن سيرة محمد التى قام بتأليفها (جريمه Grimme) (٩) يقدم عرضا مختصرا عن أقدم كتب السيرة المحمدية (فى أوروبا) . وينطلق هورجرونيه فى ذلك من كتاب (ج . هـ . هوتنجر Hottinger) (١٠) «تاريخ الشرق Historia orientalis » (الصادر فى زيوريخ عام ١٦٥١) . والهدف الذى يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقدم التاريخ العام فحسب ، وانما هو بالأحرى يرمى الى بلوغ هدفين آخرين : ففى مقابل الاتهام الذى وجهه الكاثوليك الى دعاة الاصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الاسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر ـ من ناحية ـ بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، أى البرهنة على أن حجج (بلارمين

=

وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى كما صرح بذلك فى كتابه : تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغانى فى باريس ودار بينهما نقاش حول الاسلام فى جريدة (الديبا) الفرنسية .

(انظر المستشرقون للعقيقى ١٩١/١ ، وزعماء الاصلاح لأحمد أمين) .

(٨) سنوك هورجرونيه (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦) مستشرق هولندى . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفى طليعة الرواد فى دراسات الفقه الاسلامى والأصول والتفسير والحديث فى أوروبا . له بحوث ودراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وشريعته ، وحول طابع الاسلام وانتشاره ، وابراهيم فى القرآن ، والاسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج الى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر .

(٩) هـ . جريمه (١٨٦٤ ـ ١٩٤٢) كان أستاذا للغات الشرقية فى مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد (فى جزئين) ، وترجمة القرآن . وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والاسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(١٠) هوتنجر (١٦٢٠ ـ ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية فى كل من زيوريخ وهايدلبرج . ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

Bellarmin) (١١) للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قد استعيرت من علم العقيدة الاسلامى . ثم رغب هوتنجر (من ناحية أخرى) كما فعل (ببلياندر Bibliander) من قبل (ص ١٤٧) (١٢) بنقضه للقرآن ـ فى الاسهام فى مكافحة الخرافات المحمدية والسيادة التركية التى قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام السابقة التى كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهب المحمدى .

ونصادف أيضا نفس النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه لدى الأب (ماراتشى Marracci) (١٣) الذى قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن فى عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن (ص ٢١٤) ، وكذلك نجد هذا النفور لدى (بريدو Prideaux) (١٤) الذى جعل كتابه (حياة

---

(١١) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ ـ ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه.

(١٢) يحيل بفانموللر هنا الى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك الى أن كتاب القسيس السويسرى ببلياندر ـ والذى صدر عام ١٥٤٣ م فى ثلاثة مجلدات ـ يمثل الوضع الذى وصل اليه الجدل كله ضد الاسلام حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتى تمت قبل ذلك بأربعمائة عام ، وانما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللاسلام ابتداء من عصر بطرس الموقر حتى عصر الاصلاح الدينى .

(١٣) يحيل بفانموللر هنا أيضا الى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشير الى ان الأب الايطالى لودفيج ماراتشى أمضى أربعين عاما فى دراسة القرآن وكتب التفسير العربية لكى يحارب محمدا بنفس سلاحه . وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل « الضخم » الذى أنجزه ، والذى تضمن النص العربى الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش توضيحية ونقض لكل فقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر ماراتشى قبل ذلك ـ فى عام ١٦٩١ ـ كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة محمد وعن القرآن ثم برهن ـ كما يزعم ـ على بطلان الاسلام وحقيقة الديانة المسيحية .

(١٤) هو همفرى بريدو (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤) مستشرق انجليزى . ويعلق نجيب العقيقى على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : آنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » (المستشرقون ٤٥/٢ الطبعة الرابعة) .

محمد) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة واصحاب مذهب التأليه الطبيعى والاباحيين .

* * *

٢ ـ ريلانـــد (Hadrian Reland) :

أما الكتاب الصغير الممتاز الذى ألفه (هادريان ريلاند)(١٥) فى عام ١٧٠٥ بعنوان « الديانة المحمدية De religione Mohammedica » (ص ٦٣ وما بعدها) فانه يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف . فالاهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلةالتى لا تزال قراءتها حتى اليوم على جانب من الأهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية الى رسم صورة أمينة للاسلام .

هل من الممكن أن تجد ديانة متناقضة ـ كما يصفها المؤلفون المسيحيون ـ ملايين الأتباع ؟

دعوا المسلمين أنفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فانه يتحتم على المرء أن يعرف الاسلام جيدا لكى يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة . ولكن ضرورة محاربته تنمو مع كل يوم لأن علاقات الأوروبيين بالمحمديين ـ فى تركيا وأفريقيا وسوريا وايران وجزر الهند التابعة لهولندا ـ تتسع دائرتها باستمرار . وفى وسع المرء عن

---

(١٥) هادريان ريلاند (١٧٧٦ ـ ١٧١٨) مستشرق هولندى ، كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولندا . ومن مؤلفاته التى كان لها صدى بعيد فى أوروبا كتابه عن الاسلام فى مجلدين ، أحدهما عن الديانة الاسلامية والثانى حول تصويب فكرة الأوروبيين الخاطئة عن الاسلام . وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات أوروبية . وله أيضا : تعليم المتعلم للزرنوجى ، وفى مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة فى أوروبا حتى أيامه ، وله كتاب فى الجهـــاد ، والجغرافيا والآثار فى فلسطين . (المستشرقون ٣٠٤/٢) .

ويحيل بفانموللر هنا الى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين بفانموللر أن ريلاند كان أول من قام بعرض علمى للاســـلام فى أوروبا ، ويشير الى ردود الفعل التى أحدثها كتاب ريلاند عن الاســـلام . (انظر ترجمتنا لذلك فى ص ١٠٧ وما بعدها فى العدد الثانى من حولية كليـــة الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة قطر) .

طريق النقاش الدينى ـ أن يكسب المسلمين الى صف العقيدة الحقة ، وهذا أفضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء .

والمعرفة الدقيقة بالاسلام واتباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الاحساس بالشكر لله الذى انعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فانه لم يدر بخلد ريلاند أن يقوم بتمجيد الاسلام . فهو بالأحرى يستفظعه ـ كما يوضح هو ذلك(١٦) ـ انه يريد فقط أن يتعرف المرء على الاسلام تعرفا حقيقيا ، والا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

* * *

٣ ـ بولانفلييه (Boulainvillier) :

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من أمثال ماراتشى وبريدو اللذين لم يستطيعا أن يريا فى الاسلام أى شىء طيب . ففى عام ١٧٣٠ ظهر فى لندن كتاب (حياة محمد) ـ وهو كتاب لم يكتمل ـ من تأليف الكونت (بولانفلييه) وقد مجد المؤلف فيه مؤسس الاسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، واحل دينه فى جوانب كثيرة فى محل أرفع من المسيحية المألوفة .

ولم يكن الأمر الذى دفع هذا الكونت الى هذا المديح لنبى مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه ـ بمساعدة بعض المؤلفات الاوروبية ـ نبيا يرضى حاجة فى نفسه ، وكان يرى فى محمد نبيا قام بتمدين شعبه وانشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفلييه بسرور خفى أن محمدا ، فى الوقت الذى يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية أشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت فى رواية بولانفلييه سرعان ما اكتشفه معاصروه أيضا(١٧) .

* * *

---

(١٦) نعتقد أن صدور مثل هـذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بمثل هـذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب ، لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس (راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ ـ ٣٥ ، النوحة ١٤٠٤ هـ) .

(١٧) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الالهية (انظر الشرق والاسلام =

٤ ـ جان جانييه (Jean Gagnier) :

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا (جان جانييه)(١٨) يتجه ضد بولانفلييه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفى عام ١٧٢٣ قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ـ حديثة نسبيا ـ الى اللغة اللاتينية . وبعد قيام الكونت بولانفلييه بنشر روايته شعر جانييه بأنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة ـ حسب المصادر المتوفرة لديه ـ ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكى يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحمس الحاقد لكل من ماراتشى وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانفلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتاب جانييه ، التى يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغى أن يفهم المرء من « حياده »(١٩) .

* * *

= فى أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢١) ، ويحاول بفانموللر هنا أن يقلل من شأن النظرة الايجابية لبولانفلييه الى الاسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها الى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلى سنجد أيضا جانييه يصف محاولات بولانفلييه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اقترب كاتب غربى من رؤية حقيقة الاسلام انبرت الأصوات من كل مكان فى الغرب تتهمه بالمبالغة أو الغرض أو العداء للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هذا من العلم والموضوعية فى شىء ؟

ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية الا اذا أبرزت مثالب وأظهرت نقائص تلصق بالاسلام ؟

ان هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمى أو أخلاقى .

(١٨) جان جانييه (١٦٧٠ ـ ١٧٤٠) كان أستاذا للعبرية ثم العربية فى أكسفورد . قام بترجمة رسالة الرازى عن الجدرى ، ونشر من كتاب أبى الفداء « مختصر تاريخ البشر » (سيرة النبى) متنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد فى جزئين بالفرنسية (امستردام ١٧٣٢) . راجع : المستشرقون ٢ / ٤٥ .

(١٩) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة صريحة وتحيزا مبدئيا ، اذ ما معنى أن يقدم جانييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟ =

٥ ـ سـيل (Sale) :

اما (سيل)(٢٠) الانجليزى فانه فى مقدمته التمهيدية التى صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول فى البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح فى القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر اليه على أنه مضلل .

* * *

٦ ـ فولتيـــر (Voltaire) :

اما (فولتير)(٢١) فقد كتب روايته المأساوية « محمد أو التعصب » دون أن يراعى الحقائق التاريخية . وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ . ومع ذلك فقد اراد

=

ان الأمر هنا ليس له لدينا الا تفسير واحد ، وهو قصد توجيه القارىء من بادىء الأمر لقراءة الكتاب فى ضوء هذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانبيه على القارىء ويضع قيدا على حريته ، ويقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم . وهذا ليس من العلم ولا من الانصاف فى شىء ، ولا يمت الى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانبيه بعد ذلك أنه ـ كما يقول بفانموللر ص ١٧١ ـ كان يعتمد فى كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعهم يتحدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبا اضافة أى شىء من آرائه ، وان كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسلمون ويعتقدونه .

فالتناقض واضح بين المقدمات والنتائج ، وقصد الاساءة هو الذى يوجه جانبيه فى كتابه . وهكذا نرى أن « الحياد » الذى يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(٢٠) جورج سيل (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) مستشرق انجليزى ، ترجم القرآن الى الانجليزية ونشرت الترجمة فى لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواشى وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الاسلامى تضمنت الكثير من الافك واللغو والتجريح .

(٢١) فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) فيلسوف وأديب فرنسى شهير ، يعد قطب عصر التنوير فى فرنسا .

أن يعرض على الجمهور شخصية (تارتوف Tartuffe) (٢٢) ممسكا سلاحا فى يده ، وكان يعتقد انه يستطيع أن يعير محمدا هذا الدور . ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن محمدا يمثل التعصب والتضليل الدينى (٢٣) .

وهكذا كانت أوروبا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس التاريخى الحقيقى الذى يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما تماما .

* * *

---

(٢٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق فى احدى مسرحيات الأديب الفرنسى الشهير (موليير Moliere) (١٦٢٢ — ١٦٧٣) والتى تحمل نفس الاسم أيضا .

(٢٣) انه لأمر غريب حقا أن يلجأ فولتير الى التشهير بالنبى عليه الصلاة والسلام جاعلا منه فى هذه الرواية التى مثلت على المسرح « منافقا لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدفعه النوازع الحسية والتعطش للدماء . الخ » وهويعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية . ولكن فولتير أراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة « اياك أعنى واسمعى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانمولر : « لكن فولتير لم يرد اطلاقا بمأساته أن يصور شخصية محمد التاريخية ، وانما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتى ، وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية فى مدينة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » فى باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها حينذاك (انظر : الشرق والاسلام فى أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢٣) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير فى مقالته Esai sur les moeurs) يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدا بأنه « الرجل العظيم الذى جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والكاهن ، والذى لعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها انسان على ظهر الأرض » (انظر بفانمولر ١٧٢) . وفى وسط هذا البحر المتلاطم بأمواج التخبط الواضح والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية النزيهة . ومما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حينا ومن منكرى النبوات عامة فى أكثر الأحايين .

٧ ـ جوستاف فايـــل (G. Weil) :

وعندما نشر الأستاذ (جوستاف فايل)(٢٤) فى عام ١٨٤٣ كتابـه عن سيرة محمد كان فى وسعه أن يقول بحق فى مقدمته أن آخر أسلافه الذى كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانييه الذى ألف كتابه قبل ذلك بقـرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة الى الأمام ، وذلك بسعيه فى رسـم صورة أكثر تاريخية لأصول الاسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عددا مما لم يكن متوفرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا فى خلال الخمسين عاما التى مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل فى شىء من الخدمة التى أداها فايـل بوصفه أول من قـام ببحث نقدى تاريخى حول هذا الموضوع والنتيجة التى ينتهى اليهـا فايل فى كتابه هى أن محمدا يمكن أن يرى أيضا فى أعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

* * *

٨ ـ كوسان دى برسيفال (Caussin de Perceval) :

ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلا الى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح (كوسان دى برسيفال)(٢٥) فى « مقالاته » أنه من غـير

---

(٢٤) يأتى التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقى (المستشرقون ٣٦٦/٢) تحت اسم سيمون فـــايل ، ولعله ســـهو ، فالمعلومات الواردة تحت هـــذا الاسم تخص جوستاف فايل (١٨٠٨ ــ ١٨٨٩) وهو مستشرق المـــانى شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية . ومن مؤلفاته التى تعنينا هنا الكتاب الذى يشير اليه بفانسوللر وهو « محمد النبى : حياته وتعاليمه » شتوتجارت ١٨٤٣ .

(٢٥) هو ارمان كوسان دى برسيفال (١٧٩٥ ــ ١٨٧١) كان أستاذا للعربية فى معهد فرنسا وعضوا فى المجمع اللغوى . ومن بحوثه : وقعة بدر ــ مرحلة من حياة الرسول (المجلة الأسبوعية ١٨٣٩) وباكورة تاريخ العرب فى ثلاثة مجلدات (١٨٤٧) وقد تناول فيه العرب قبل الاسلام ثم عصر النبى ، ثم انضواء القبائل تحت راية الاســـلام (المستشرقون ١ / ١٧٧) .

المعقول الا يستطيع المرء ان يرى فى محمد الا مخادعا ذكيا أو عبقرية طموحة . لقد كان محمد ـ حسب رأيه ـ على وجه الخصوص انسانا مقتنعا بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على احيائه .

وقد كانت المصادر التى استطاع هؤلاء الكتاب ان يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة الى ما كان متوفرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جدا مما اصبح متيسرا لنا فى خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة(٢٦) . وبالاضافة الى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة فى منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان ـ مثلما عرف أسلافهما ـ ان المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية او لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة أكثر من ذى قبل الجيد منها من الردىء . ولكنهما لم يلاحظا ملاحظة كافية أن سيرة محمد ـ على الأقل ما ينتسب منها الى الفرق الاسلامية ـ قد تطورت واعيد تشكيلها بنفس القدر الذى تطور به الدين المحمدى نفسه ، الأمر الذى يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم الا على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ « الكنيسة » المحمدية(٢٧) .

وفضلا عن ذلك فانه لم يكن هناك حتى عصريهما من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين «تعاليم محمد» وبين « الاسلام » الذى انبثق عنها(٢٨) . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ أن يتحدث عن

---

(٢٦) يلاحظ أن بفانموللر قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢٧) استخدم بفانموللر هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الاسلام وعن الدراسات الاسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد فى الاسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص فى الكنيسة الكاثوليكية .

(٢٨) يثير بفانموللر هنا قضية غريبة ، حيث يفهم أن الاسلام شىء وتعاليم محمد شىء آخر ، فدين محمد وهو الاسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار أن الاسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود فى التعاليم الأصلية للنبى عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب فى الفهم لا أساس له . فالاسلام وتعاليم محمد شىء واحد ومصدرهما هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

« دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هى القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخى طبقا لأقدم الأحاديث . وبدلا من معرفة هذا الفرق راح المرء يخلط بين القديم والحديث وراح يمدح محمدا أو يذمه لأمور لم يفكر فيها محمد على الاطلاق .

وقد تم أخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التى ظهرت فى وقت واحد تقريبا لكل من نولدكه وموير واشبرنجر .

* * *

٩ ـ موير (Muir) :

اما (موير)(٢٩) فانه على الرغم من أرثوذوكسيته الانجليزية فانه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل (يقصد محمدا) ظهر له أنه

أما ما طرأ على الفكر الاسلامى (وليس على الاسلام) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق اسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الاسلام أو تعاليم محمد فى شىء ، لأنه يتعلق فقط بأفهام أصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الاسلام مسئولية ما قد يكون فى هذه الأفهام فى بعض الأحيان من خلط أو اضطراب فى الفهم .

وعلى ذلك فان التفرقة الصحيحة التى كان على بفانموللر أن يدركها هى بين الاسلام والفكر الاسلامى ، على اعتبار أن الاسلام وحى الله لنبيه ليقوم بتبليغه وتبيينه للناس **«وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم»** (النحل : ٤٤) أما الفكر الاسلامى فهو فكر انسانى يخطىء ويصيب ويعتريه التطور والتغيير . وقد فتح الاسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد فى الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد اذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد واذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعا على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يجد فى المجتمع الاسلامى من مشكلات .

(٢٩) السير وليم موير (١٨١٩ ــ ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى ، عمل فى الهند ثم اختير رئيسا لجامعة أدنبره . ومن مؤلفاته : (حياة محمد Life of Mohamet) فى أربعة أجزاء ، وقد صدر فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضا حوليات الخلافة ، ومصادر الاسلام ، ودولة المماليك فى مصر .

كان ضحية للشيطان(٣٠) . وعلى الرغم من أن موير كانت تنقصه المادة الضرورية لسيرة حقيقية فان كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحاث النقدية التى لها قيمة باقية .

* * *

١٠ ـ اشبرنجـــر (Sprenger) :

أما كتاب (اشبرنجر)(٣١) « حياة محمد وتعاليمه » فانه يبرهن من عنوانه على أن المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الاسلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التى قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلهاوزن وحده هو الذى قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب اشبرنجر (انظر : محمد فى المدينة لفيلهاوزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها) . وقد خلص اشبرنجر الى الاقتناع بأن محمدا كان انسانا هستيريا(٣٢) . فلنترك جانبا ضعف الوقائع التى يستند اليها التشخيص!

---

(٣٠) محمد صلى الله عليه وسلم ليس فى حاجة الى مثل هـذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لمشركى مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد فى زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة فى صورة أخرى .

(٣١) الويس اشبرنجر (١٨١٣ ــ ١٨٩٣) مستشرق نمســـاوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨،عمل فى الهند ثم عمـل أستاذا للغات الشرقيه فى جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربى على عهد الخلفاء ، وحياة محمد فى ثلاثة أجزاء . وقد صدر الجزء الأول فى (الله آباد) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية فى برلين من ١٨٦١ حتـى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عـام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » على كتاب اشبرنجر « حياة محمد » بأنه كتاب جاء مخيبـا للآمال فى أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التقـرير العلمى (انظر : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى ماهر ص ٢٣) .

(٣٢) سبق أن أشرنا فى تعليق سابق الى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحى للنبى لم تكن الا نوبات من الصرع تعتريه ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسـلم كان مصـابا بالهستيريا . وأساس هذه المزاعم كلها يكمن فى محاولة استبعاد القـول بنبوته وانكار تلقيه الوحى من عند الله . =

انه على كل حال سيتحتم على المرء أن يعترف بأن القيمة الخاصة

=

وما دام هذا هو الموقف المبدئى لهذه المزاعم فلن يستطيع القائلون بها فهم ظاهرة الوحى . ولو طبقنا هذه المزاعم على جميع الأنبياء والمرسلين لأبطلنا الأديان السماوية جميعا .

وهذا الموقف ليس أمرا جديدا فقد سبق لمشركى مكة أن اتخذوا موقفا مماثلا من محمد صلى الله عليه وسلم . كما اتخذ المعاندون من أقوام الأنبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يخبرنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت اليهم تهمة الجنون من أقوامهم . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « **وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون** » (الحجر : ٦) وقوله : « **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون** » (الذاريات : ٥٢) ، وقوله : « **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** » (الدخان : ١٤) ، وقوله : « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** » (القمر : ٩) . ولسنا هنا فى حاجة الى مناقشة مستفيضة لأسطورتى الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف أعراض هذين المرضين وما لهما من آثار فى شخصية المصاب بأى منهما ، ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حتما أن هذه المزاعم لغو باطل وافتراء كاذب لا يستحق أن يأخذه المرء مأخذ الجد .

وقد أساء المستشرقون عن جهل أو عن عمد فهم الظواهر التى كانت تصاحب الوحى عند نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من أنه — كما يقول الرسول نفسه — كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة : « رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا » كما روى ذلك البخارى فى صحيحه فى حديث مشهور .

ولو تأمل الباحث المنصف فى أن تلقى الوحى يعنى الانسلاخ عن حال البشرية الى حال الملكية ، لعرف أن هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحى ليست الا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتاب البيزنطيون ، وبوجه خاص (ثيوفانس Theophanes) ، هم أول من أذاع فى الغرب أسطورة الصرع . (انظر ص ٥٢٢ من : Handwoerterbuch des Islam) . فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذى تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الاسلام ، واليهم ترجع أغلب الأساطير التى شاعت فى الغرب حول محمد صلى الله عليه وسلم فى العصور الوسطى . ويعترف المستشرقون أنفسهم بأن البيزنطيين كانوا مصدرا غير موثوق به فيما يتعلق بالاسلام . كما يعرض علينا ذلك بفانموللر فى موضع آخر من هذا البحث) .

لمحمد يجب أن تتمثل فى هذا الذى يختلف فيه عن الهستيريين الآخرين . وليس فى الحالة المرضية التى يشترك فيها معهم .

* * *

١١ ـ نولدكـــه (Nöldeke) :

وأما كتاب (نولدكه)(٣٣) « تاريخ القرآن » فانه يفى بكل متطلبات العلم . انه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الاسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال . أما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فانه كتاب شعبى ومختصر وهو يقينا أفضل كتاب من هذا النـوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبى .

● الكم والكيـف :

ومنذ أن مهد كل من موير واشبرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة ابداعية عن حياة محمد . وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجـات متفاوتة فى الفهم ، وعرضوها على الجمهور فى صورة دراسات لا تحصى ، أما دون أى تغيير واما باضافة شىء من عندهم . وهذا أحيانا ما يكون أكثر سوءا .

وبظهور المؤلفات المشار اليها نما عدد المواد المتوفرة لسيرة محمد . وقد أصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربيـة هامة بأعداد كبيرة . ومن مؤلفات العلماء الأوروبيين يكفى أن نذكر هنـا بكتاب جولدتسيهر(٣٤) « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن (٣٥) « لمحات وأعمال أولية » .

---

(٣٣) تيودور نولدكه (١٨٣٦ــ ١٩٣٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للغات الشرقية فى عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير فى مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربى واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى هانوفر عام ١٨٦٣ .

(٣٤) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ ــ ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا . كان واسع الاطلاع غزير الانتاج بلغات مختلفة . وقد عرف قراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة فى الاسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامى .

(٣٥) فيلهاوزن (١٨٤٤ ــ ١٩١٨) مستشرق ألمانى ، له دراسات =

OBEIKAN.COM

وكل من يشعر لسبب او لآخر أنه يتحتم عليه أن يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع أن يقتصر اليوم على النظر الى الأمور القديمة من زاوية جديدة ، وانما يجب عليه ان يضيف شيئا جديدا الى ما أتى به سابقوه .

والى هذا الحد كان العرض الذى قدمه سنوك هورجرونيه فى عام ١٨٩٤ .

* * *

١٢ ـ بيير مارتينو (Pierre Martino) :

يقدم لنا (بيير مارتينو) نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد فى فرنسا ، وذلك فى بحثه عن « محمد فى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر فى باريس عام ١٩٠٦ .

وفى الفصل الأول من هذا البحث الذى جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط فى محمد ، مترسما فى ذلك خطى (دانكونا d' Ancona) و (باسيه R. Basset) و (دوتيه Doutte) (٣٦) وقد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين فى عصور الحروب الصليبية أثرها فى عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبى وأعماله . ففى الرواية التى كتبها (ألكسندر دوبون A. du Pont) عن محمد Roman de Mahomet) يظهر محمد بوصفه أحد قطاع الطرق ، وقد أصابه مس

= اسلامية عديدة منها : السيادة العربية . والخوارج والشيعة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وقد ترجمت هذه الكتب الثلاثة الى العربية وله أيضا محمد فى المدينة . والتمهيد للتاريخ الاسلامى فى ستة أجزاء ، ودستور المدينة أيام النبى ، والأحزاب المعارضة فى الاسلام قديما دينا وسياسة . وغير ذلك من دراسات (المستشرقون ٢ / ٣٨٦ وما بعدها) .

(٣٦) سيأتى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وباسيه ودوتيه فى نهاية هذا البحث .

من الشيطان ويقوم بفعل كل نوع من انواع الأفعال الدنيئة والتضليل (٣٧) .

أما كتاب (القانون لدى المسلمين Livre de la loi au Sarrasin) فانه يتضمن تجميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية . وحقيقة الأمر هى ان ما كان يعرفه المرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات . وقد كان ذلك تقريبا هو كل شيء . وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان مخمورا . وليس من العجيب اذن أن المحمديين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ! ولكى يجعل المرء من النبى المزيف شخصية مكروهة تماما فقد عمدوا الى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، اى زنديقا مارقا . أجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ! وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس فى المتع والخديعة (٣٨) .

---

(٣٧) سيأتى الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية فى موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا — كما سيذكر بفانموللر فيما بعد — أن أساس هذه الرواية يتمثل فى الأساطير التى روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتى انتشرت فى الغرب فى العصر الوسيط . وهى أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالاسلام ونبيه .

ويعترف بفانموللر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يتعدى أمورا قليلة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات . فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع فى منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة غريبة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارىء كان ينتظر منا أن نحدف مثل هذه الأباطيل . ولكنا نحيل القارىء الكريم الى ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة هذا البحث . ومن ناحية أخرى لا بد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا فى تلك العصور الوسطى التى كانت تعد بحق عصورا مظلمة (The Dark Ages) باعتراف الغرب نفسه ، فى الوقت الذى كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم . فلعل فى ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

(٣٨) انظر الهامش السابق .

أما الفصل الثانى (من بحث مارتينو) الذى يحمل عنوان « الدراسات الاسلامية الأولى » فانه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بوديه « تاريخ ديانة الأتراك ومولد وحياة ووفاة نبيهم المزيف محمد »(٣٩) الصادر فى (باريس) عام ١٦٢٥ (وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١) وقد كان بودييه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتينو بعد ذلك ترجمة (دورييه Du Ryer) (٤٠) للقرآن .

أما الفصل الثالث الذى جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للاسلام » فانه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال(٤١) وماراتشى وبريدو .

---

(٣٩) لقد كان بودييه يهدف بكتابه — كما يقول هو نفسه — الى « الكشف عن أباطيل ورذائل نبى الأتراك . والكشف عن تضليله وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن ان ينتظر أحد بعد ذلك أن يقول بودييه كلمة حق فى محمد ؟ لقد كان كاثوليكيا متعصبا يستقى معلوماته — كما يقول بفانموللر — من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تمحيص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الاسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبيين طوال القرن السابع عشر (انظر بفانموللر ص ١٦٨) .

(٤٠) تعد ترجمة دورييه للقرآن التى ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دورييه مدة طويلة قنصلا لبلاده فى مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى قرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها اقبالا كبيرا . ولم يكن دورييه منصفا للاسلام بأى حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها الى أن قام (سافارى Savary) بانجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٤١) (بليس بسكال Blaise Pascal) (١٦٢٣ — ١٦٦٢) هو الفيلسوف الفرنسى المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين (Pensées sur la religion) فى باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى فى محمد العدو اللدود للكنيسة ، ولهذا كان حريصا كل الحرص على محاربته . ففى كتابه السابق يتناول محمدا صلى الله عليه وسلم فى تسع

أما رد الاعتبار لمحمد ـ كما يتناول ذلك **الفصل الرابع** الذى يحمل عنوان « رد الفعل البروتستانتى والفكر الحر » ـ فقد كان عملا من أعمال القرن الثامن عشر . فبعد العمل الذى قام به كل من هوتنجر و (مونى Moni) قاد كل من ريلاند وجانييه الدعوة الى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد وأعماله لدرجة أن الكونت بولانفلييه رأى فى محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما .

وقد خصص المؤلف **الفصل الخامس** لموضوع « محمد فى الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج (٤٢) وفولتير .

وفى **الفصل السادس** الذى جاء بعنوان : « محمد والموسوعيون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » وأعمال الموسوعيين .

ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سافارى للقرآن . ويأتى بعد ذلك ملحقان هما :

١ ـ المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالاسلام .

=

شذرات من بين الشذرات التى يضمها هذا الكتاب ، ويعقد فى أحدها مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : أن محمدا لم يجر التنبؤ بظهوره فى العهد القديم فى حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترف القتل فى حين كان المسيح يدع أتباعه يقتلون ، ومحمد كان يحرم القراءة فى حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحا دنيويا فى حين كان المسيح مغلوبا على أمره وانتهى به الأمر الى الصلب .... الخ ... وكان بسكال يفتقد لدى محمد عدم اتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار (كما هو الشأن فى المسيحية) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التى أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الحسية للجنة ، ويقول انه لم يجد فى هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أى أمارة من أمارات الحقيقة . (راجع بفانمولر ص ١٤٩) .

هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان فى موقفه من الاسلام ونبيه يفتقد كل هذه الصفات ، وبرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الاسلام ونبيه شأنه فى ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسه وللفلسفة وللحقيقة بصفة عامة .

(٤٢) الان رينيه ليساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) أديب فرنسى .

* * *

١٣ ـ مينـــور (Minor) :

أما مينور فانه يقدم لنا فى الفصل الأول من بحثه « محمـد لـدى جوته »(٤٣) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط فى محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنـه مما هو منتشر على نطاق واسع ٠ وقد استطاع جوته فى القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين (فى محمد) فى تاريخ الأحداث لـ (جوتفريد Gottfried) وفى المقالة المطولة فى قاموس بايل ٠

وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات القرآن وتاريخ طبعاته ٠ وفى حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت باحراق نسخ طبعة القرآن التى صدرت فى البندقية عام ١٥٣٠ ، وفى حين أن البابا الكسندر السـابع (١٦٥٥ ـ ١٦٦٧) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضا ترجمته ، فـان مضمون القرآن قد أصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتى ، ولكن مع اضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية ٠ وقد أعاد (ببلياندر Bibliander) ـ خليفة (تسفنجلى Zwingli) (٤٤) نشر الترجمـــة اللاتينيـة الأولـى للقـــرآن التى أنجزت عـام ١١٤٣ م بايعاز من الأب بطرس الكلونى ، وذلك بعد أربعمائة عام من صدورها ، وأضاف اليها عديدا من الردود المفندة ٠

وقد توالت بعد ذلك الترجمات التى قام بها كل من (شـــفايجر Schweigger) (٤٥) و (دو رييه du Ryer) و (يوهان لانجـه Lange) و (نريتر Nerreter) و (ماراتشى Marracci) .

---

(٤٣) نشر مينور هذا البحث فى بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ ٠

(٤٤) أولريش تسفنجلى (١٤٨٤ ـــ ١٥٣١) قطب الاصلاح الدينى فى سويسرا ، سقط قتيلا فى الصراع ضد الكاثوليك ٠

(٤٥) قام سالمون شفايجر بانجاز هذه الترجمة الى الألمانية عن ترجمـة ايطالية معتمدة أساسا على النص العربى ٠ وقد ظهرت ترجمة شفايجـر للقرآن فى ثلاثة أجزاء فى مدينة نورنبرج عام ١٦١٦ وعام ١٦٢٣ ٠

وقد حدث تحول فى الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت ، وبوجه خاص عن طريق ريلاند . وقد أخذ جانييه موقفا وسطا بين الاتجاه اللاعن الذى تبناه كل من ماراتشى وبريدو من ناحية ، والاتجاه الممجد لمحمد والذى يمثله بولانفلييه من ناحية أخرى . وقد قص علينا جانييه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات وأساطير باذلا قصارى جهده فى استخدام مصادر جيدة ، وغالبا ما كان يقتبس منها حرفيا . وبعد ذلك بعامين (أى عام ١٧٣٤) ظهرت فى انجلترا ترجمة انجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة فى القرن الثامن عشر .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد فى عصر التنوير : ويصادفنا هنا فى عرضه أسماء كل من ليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول (Wolfenbuettler) وهاجيدورن وجلايم وتوربين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » .

وهناك أيضا ترجمتان المانيتان للقران قام بترجمتهما من الأصل العربى مباشرة كل من (ميجرلين Megerlin) (٤٦) و (بويزن Boysen) (٤٧) وقد لقيتا حقهما من التقدير . ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن (جيبون Gibbon) وهردر ، و (أولزنر Oelsner) .

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل فى الفصل الثانى شذرات فرانكفورت لجوته . وفى الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد . وفى الفصل الرابع يتحدث عن الخطة فى « الشعر والحقيقة » لجوته . ثم يتناول أخيرا فى الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية . وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات ببليوجرافية قيمة بالاضافة الى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات جوته (٤٨) .

* * *

---

(٤٦) ظهرت هذه الترجمة فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ .

(٤٧) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن فى هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ وأعيد طبعها عام ١٧٧٥ .

(٤٨) جوته (Goethe) (١٧٤٩ — ١٨٣٢) هو أعظم الشعراء الألمان على الاطلاق ، وقد كان منصفا للشرق والاسلام ونبيه .

١٤ ـ فولفـــل (Adolf Wohlwill) ·

أما ادولف فولفل فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذى قدمه مينور ، وذلك فى بحثه المفصل « المانيا والاسلام وتركيا »(٤٩) ·

وفى فصل تمهيدى يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيا والغرب عبر القرون · وبعد ذلك يصف لنا (فى فصل آخر) الخطر التركى كما يصوره الشعر الألمانى والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر · وفى الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الاسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية · وهنا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التى قام بانجازها (هينكلمان Hinckelmann) (٥٠) ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الأولى

=

قرأ القرآن بامعان فى ترجمتين احداهما لاتينية والأخرى ألمانيه ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثره بالقرآن بوجه خاص فى الديوان الذى أسماه « الديوان الشرقى الغربى » . ومن بين ما نقرؤه له فى هذا الديوان قوله : « لله المشرق ولله المغرب ، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق . وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا » .

وفى بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « من حماقة الانسان فى دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، واذا الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على اعجابه وتقديره لنبى الاسلام ، مما يدل على سعة أفقه وسمو فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعوبى والدينى . (انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك فى كتاب : « الشرق والاسلام فى أدب جوته » للأستاذ عبد الرحمن صدقى ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠) ..

(٤٩) نشر هـذا البحث فى العـدد رقـم ٢٢ من مجلة (ايفريون Euphorion) عـام ١٩١٥ ص ١ — ٢١ ، وص ٢٢٥ — ٢٦٧ .

(٥٠) كان القس ابراهام هنكلمان من هامبورج هو أول من تجرأ على نشر النص القرآنى بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد احراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن فى أوروبا عام ١٥٣٠ فى البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظر الذى قرره البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ — ١٦٦٧) والذى كان يقضى بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

للقرآن ، ويبين كيف أن العداء ضد الاسلام قد أخذ يضعف بالتدريج ويحل محله ـ فى تزايد مستمر ـ حسن النية لدى مؤلفى عصر التنوير (هادريان ريلاند ، ليبنتز ، ليسنج ، رايماروس) .

وفى الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضا مختصرا لتاريخ الاسلام فى مرآة العلم والشعر أثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، وأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهنا يقوم أولا ـ بناء على دراسات متخصصة ـ بتقدير نشاط المستشرق (دافيد فريدريش ميجرلين D. F. Megerlin) الفورتمبرجى (نسبة الى مقاطعة Wuerttemberg) بألمانيا) الذى يرجع اليه الفضل فى القيام بانجاز أول ترجمة المانية للقرآن على أساس النص العربى . وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار ـ هردر ، وجوته ، وفيلاند ، وشيللر ـ من الاسلام ومن مؤسسه .

وبالاضافة الى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفى لكل من اونزنر و (هامر بورجشتال Hammer - Purgstall)(٥١) .وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينسى . وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقى الغربى » لجوته ، الأعمال الشعرية المتعلقة بالشرق لشعراء من بينهم (روكرت Rueckert) (٥٢) و (بلاتين

---

(٥١) جوزيف فون هامر ـ بورجشتال (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) مستشرق نمساوى ، طوف فى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وايران وتركيا ، وانشأ فى فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات . له دراسات وافرة ولا سيما فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ، وقد حقق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية . أصدر فى فيينا أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا هى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ . وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات . (المستشرقون ٢ / ٢٧٤ وما بعدها) .

(٥٢) فريدريش روكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) شاعر ألمانى ، اهتم بالأدب العربى وعمل أستاذا للغات الشرقية فى ارلانجن وبرلين . له دراسات حول مقامات الحريرى ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرىء القيس ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير . وقد ترجم الى الألمانية كثيرا من هذه الآثار الأدبية .

Platen) (٥٣) ، وكذلك النشاط العلمى لكل من هامر بورجشتال ، و (جورج فريدريش داومر Daumer) وعدد من المستشرقين الألمان .

أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بين المانيا وتركيا من أمثال (مولتكه Moltke) و (كريستيان فريدريش فورم Wurm) و (فريدريش لست List) (٥٤) . أما الفصل الختامى فانه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب الاسلامية فى بداية القرن العشرين .

* * *

١٥ ـ هاز (Haas) :

ان ما أخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحسية لمحمد عبر تحولات العصور (٥٥) ـ فالعرض التصويرى للانسان كان محرما بالنسبة للمحمديين ـ وانما أخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل كما صورت فى رؤوس الناس على مدى العصور . وذلك لأن أفضل سبيل ـ فى رأى المؤلف ـ لتكوين حكم على محمد يتمثل فى استحضار الأحكام الأساسية التى ذاعت خلال تحولات العصور وعبر القرون عن هذا الرجل ذى الأهمية التاريخية .

وفى البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم(٥٦) . وبعد ذلك يتحول هاز الى الحديث عن الآراء التى تكونت عن محمد خارج العالم الاسلامى .

---

(٥٣) بلاتين (١٧٩٦ ـــ ١٨٣٥) شاعر ألمانى .

(٥٤) فريدريش ليست (١٧٨٩ ـــ ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد الألمان .

(٥٥) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر العصور » فى مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥٦) من المعروف أن هذا التباين فى الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه لم يظهر الا بعد بعثته ودعوته الى دين الله ونبذ عبادة الأصنام . أما قبل البعثة فقد كان هناك اجماع على تقديره ، وشاع حينذاك وصفه بالصادق الأمين .

OBEIKAN.COM

وعلى رأس التفصيلات الى أوردها « هاز » نجد تقديرا لدراما فولتير « التعصب أو محمد النبى » ولمحة ـ عن انتصارات الاسلام على العالم المسيحى ٠

وبعد ذلك يقدم لنا هاز لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحى ضد محمد وضد القرآن بدءاً من يوحنا الدمشقى(٥٧) حتى نهاية القرن السابع عشر ٠ وفى أثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كان الحكم على محمد حكما سيئا الى أبعد الحدود ٠ اذ يوصف بأنه دجال ونبى مزيف ومؤسس طائفة(٥٨) وتجسيد لشتى ألوان الرذائل والمنكرات ٠

أما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولا من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاند ، وسيل ٠ وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولى شخصية محمد اهتماما كبيرا ٠ وهنا يعرض « هاز » تصورات كل من فولتير وبايل وجيبون وليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة فى عرض تصورات جوته عن النبى العظيم ٠

وأخيرا جاء القرن التاسع عشر بعرض تاريخى نقدى لحياة النبى العربى وأعماله ٠ وقد وضع حجر الأساس فى هذا السبيل « فايل » بكتابه عن سيرة محمد ٠ وقد تبع ذلك فى الستينيات من القرن الماضى المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من موير واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتأخرين من امثال كريل وأوجست موللر ٠

وفى نهاية البحث يقدم « هاز » عرضا قصيرا لأهم المؤلفات الحديثة عن محمد والاسلام ٠ والأمر الذى له أيضا قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة ٠

* * *

---

(٥٧) يوحنا الدمشقى (٦٧٦ ــ ٧٤٩ م) عالم مسيحى عاش فى ظل الدولة الأموية وخدم فى القصر الأموى ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاورة مع مسلم » ، وكتاب « ارشادات النصارى فى جدل المسلمين » ٠
(انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٩) ٠

(٥٨) يعنى مؤسس طائفة منشقة على المسيحية ٠

OBEIKAN.COM

١٦ ـ تور أندريه (Tor Andrae) :

يبحث (تور أندريه)(٥٩) ـ على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة ـ التصورات المتعلقة بشخص محمد فى تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبى . وفى مقدمة دقيقة للغاية يتناول اندريه مسالة المكانة التى طالب بها محمد نفسه لشخصه فى النسق الدينى . فمن ناحية كان محمد يحس بانه ليس الا مبلغا للوحى الالهى الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه فى الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية ـ وبصفة خاصة انتصاره فى بدر ـ كان له تأثير قوى على وعى النبى باصطفائه . واخيرا أصبح الوحى الذى كان يظهر فى البداية بوصفه تأثيرا من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبى النفسية ـ أصبح بالتدريج يأتيه أيضا مرتبطا بوعى عادى ، وهذا الارتباط جعل الوحى اخيرا واقعا الى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبى بالتدريج الى الحد الذى جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على انها وحى الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما فى مكانة واحدة(٦٠) .

---

(٥٩) تور أندريه (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) مستشرق سويدى . عمل أستاذا للعلوم الدينية فى جامعتى استوكهلم وأوبساله ـ ومن مؤلفاته : بحوث فى الكنائس النسطورية فى الحيرة واليمن وأثرها فى الاسلام . وله دراسات حول : القصص فى الاسلام ، والصوفية ، والنصرانية والاسلام ، والاسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟

اما كتابه عن سيرة الرسول (شخص محمد فى تعاليم وعقيدة أتباعه) فقد كان رسالته للدكتوراة التى تقدم بها الى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية والانجليزية والألمانية ، وهو الكتاب الذى يتحدث عنه بفانموللر هنا . (المستشرقون ٣ / ٣٣ ، بفانموللر ١١٣) .

(٦٠) لقد بدأ وعى محمد باصطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاما فى مكة يدعو فيها الى دين الله . ومن منطلق وعيه التام باصطفائه وبأن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمه أبى طالب : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد بدا محمد أيضا متسامحا الى درجة معينة ازاء ما كان يقدمه له أصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافى الذى كان يقدم فى العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة أخيرة للتطور الذى وصل اليه الوعى النبوى لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وأن دينه قد قدر له أن يحقق النصر على

=

وهكذا نرى أن هذا الوعى بالاصطفاء لم يكن — أو لم يزدد — نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التى أمره الله فيها أن يصدع بدعوته ويعلن على الناس رسالته ؛ فخرج اليهم قبل انتصار بدر باثنى عشر عاما يقول لهم : « أنا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » .

وعلى الرغم من هذا الوعى القوى بالاصطفاء ، فانه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . وقد ورد تأكيد هذا المعنى فى القرآن فى اثنى عشر موضعا على الأقل نصفها مدنى والنصف الآخر مكى .

وقد كان الوحى منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبى النفسية فقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبى الى اعتبار أن ما كان يبدو له من أفكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله اذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا سند له من الواقع . فمحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين الذى لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة القمم فى السلوك الفاضل الذى استحق به أن يمدحه الله فى قوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم:٤) .

أما أن محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلها فى مكانة واحدة فلعل (أندريه) يعنى هنا ما ورد فى القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (النساء : ٨٠) . وقوله : « **أطيعوا الله ورسوله** » (الأنفال : ٢٠) ، وقوله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (آل عمران : ٣١) ، وأمثال هذه الآيات كثير . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذى كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه فى عبد الله بن أم مكتوم وفى فداء الأسرى .

كل الديانات الأخرى . وأنه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وأفضل الأنبياء وآخرهم ، وأنه كان مقصد تطور النبوة كله فى حقيقة الأمر . وعلى هذا النحو كان فى وسع التقديس الذى نشأ فيما بعد للنبى أن يجد فى الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة فى الشهادات الذاتية لمحمد(٦١) .

---

(٦١) لم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم لنفسه مكانة معينة . ولم يقبل أن يقدم له أحد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافى . فقد كان — على العكس من ذلك — يرفض مثل هذا اللون من التقديس . وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » — رواه البخارى — . وقد روى ابن ماجة عن ابن مسعود قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له : « هون عليك فانى لست بملك ، انما أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

والقرآن يؤكد فى العديد من آياته على بشرية الرسول . ومن ذلك قوله تعالى : « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد** » (الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦) ، وقوله : « **قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا** » ؟ (الاسراء : ٩٣) .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الاقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « أنا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » — وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل الى بنى اسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد أرسل الى « خراف بنى اسرائيل الضالة » . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل الى الناس جميعا . وفى ذلك يقول — فيما يرويه البخارى ومسلم : « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » . فليس هناك اذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الاسلام دينا للعالمين : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (المائدة : ٣) ، والدين عند الله بصفة عامة هو الاسلام « **ان الدين عند الله الاسلام** » (آل عمران : ١٩) .

ولكن نسخ الاسلام للشرائع السابقة لم يجعل محمدا يقلل من شأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغترفوا . وفى هذا الصدد يقول القرآن : « **لا نفرق بين أحد من رسله** » (البقرة : ٢٨٥) ، وقد روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيرونى على موسى » .

وفى الفصل الأول يصف أندريه نشأة « أسطورة النبى » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من أعمال القصاص ، وهم أولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الأساطير ، وتصادفنا آثار نشاطهم فى كتاب ابن اسحاق(٦٢) . فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج فى شبكة من المعجزات . ويبسط اندريه القول بوجه خاص فى قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وشق الصدر وانشقاق القمر . والمصدر الرئيسى لهذه المعجزات هو أساطير واقاصيص دوائر الحضارة الهللينية(٦٣) . وبعد مضى بعض الوقت (على اعمال القصاص) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات أيضا بعرض تفصيلى من جانب اندريه .

أما الفصل الثانى فانه يصف المحاولات التى قام بها العلم المختص بالعقيدة لمناقشة هذه المعجزات التى استقرت فى عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبى محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرئة شخص محمد من كل الأخطاء وتحرير افعاله من كل ما يمكن أن يكون

---

(٦٢) ابن أسحاق : هو أبو عبد الله محمد ، توفر على جمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر أنه قام بتدوين سيرة النبى فى كتابين أولهما : « كتاب المبتدأ » أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » ويتضمن تاريخ النبى حتى الهجرة ، وثانيهما هو كتاب «المغازى» وقد عرف ابن هشام كتاب المغازى عن طريق تلميذ مباشر لابن اسحق هو زياد بن عبد الله الكوفى . وقد جمع ابن هشام كتابى ابن اسحاق وهذبهما كثيرا فى مواضع معينة واستخلص منهما « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج هذا الكتاب فى صورته الحالية فى القرن الرابع الهجرى الوزير المغربى ، وشرحه السهيلى المتوفى عام ٥٠٨ هـ . أما ابن اسحاق فقد توفى فى بغداد حوالى عام ١٥٠ من الهجرة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) .

(٦٣) تروى الكتب المسيحية الأوروبية المؤلفة عن حياة القديسين المسيحيين الوانا شتى من الأقاصيص والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التى حدثت على أيدى هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبى أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها الى الحضارة اليونانية ! فأى منطق هذا ؟ وكيف وأين اتصل هؤلاء « القصاص » الذين يروى عنهم ابن اسحاق هذه المعجزات بالحضارة اليونانية ؟ .

مثارا للنقد(٦٤) . وفى الفصل الرابع الذى جاء بعنوان (شخص محمد والسنة) يظهر محمد ايضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة الاخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .

أما الفصل الخامس الذى يحمل عنوان (شخص النبى والتقوى) فانه يصف المكانة التى يتمتع بها النبى بوصفه شفيعا أو وسيطا بين المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيرا يتناول الفصل الأخير موضوع (نشأة تقديس النبى) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسية عن طريق الصوفية بتأثير شيعى . وقد تسرب أيضا مفهوم الوحى وكذلك تعاليم الوجود السابق والعقل (اللوجوس) الى الاسلام السنى بالتدريج بتأثير شيعى . ويعد محمد المنفذ الوحيد للقدرة الالهية . أجل ، أنه يعد فى النهاية المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبى علاقة تقديس مفعم بالحب(٦٥) .

---

(٦٤) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة النبى عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فان من لوازم النبوة بالضرورة وجوب الاعتقاد فى أمانة النبى فى تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من كل ما يشوه سيرته . وهذه من الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل الأنبياء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك . ومن ناحية أخرى فان الأنبياء يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من الأمور التى لا تخل بمقام الرسالة . فهم يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، وتمتد اليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول فى ذلك وفى غيره من أمور الاعتقاد .

(٦٥) سبق أن أشرنا الى أن اجلال المسلمين للنبى صلى الله عليه وسلم لا يخرجه عن اطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التى يرى أندريه أنها تسربت الى الاسلام بتأثير شيعى فنود هنا أن نؤكد أن الاسلام — بمصدريه القرآن والسنة الصحيحة — لا يتحمل تبعة أية أفهام تنحرف بتعاليمه خارج اطار هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا فى يوم من الأيام بأية تيارات دخيلة من أى نوع وفى أى شكل . وهذه ميزة فريدة يمتاز بها الاسلام عما عداه من أديان سماوية اختلط فيها الدخيل بالأصيل لدرجة الامتزاج التام .

ولست أدرى ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحى ضمن العناصر

وقد أغفل أندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للاسلام .

=
التى دخلت الى الاسلام «السنى» بتاثير شيعى . والمعروف أن مفهوم أوحى مفهوم قرآنى خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها .

أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبى علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله « أسوة حسنة » للجميع يترسمون خطاه ويسيرون على هديه « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر** » (الأحزاب : ٢١) وقد امتدحه الله فى قوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم : ٤) وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته فى ذلك « **ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** » (الأحزاب : ٥٦) .

والمسلمون جميعا — وليس الصوفية فقط — تربطهم بنبيهم علاقة حب غامر يجل عن الرصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذى ربط بين اتباع النبى ومحبة الله « **ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (آل عمران : ٣١) ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الاهتمامات الدنيوية التى يمكن أن تكون محورا للحب فى كفة وحب الله ورسوله فى كفة أخرى . وفى ذلك يقول الله تعالى : « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (التوبة : ٢٤) .

وهذا الحب الغامر يتمثل بصورة جلية فى القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه الى ساحة القتل ، وهناك سأله أبو سفيان — والرمح موجه الى بطن زيد ليغرس فى أحشائه — أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك سالم فى أهلك ؟ فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى » . وهنا قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

(القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد الغزالى بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤) .

ويشـــير (جـوزيف هوروفيتس Josef Horowitz) (٦٦) فى هـذا المجال فى مقالته التى تحدث فيها باسهاب عن كتاب أندريه فى مجلة « الاسلام » (مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ ٢٨٣) .

* * *

١٧ ـ شـفاللى (Schwally) :

واخيرا يقدم لنا (شفاللى) (٦٧) لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد فى المجلد الثانى من الطبعة التى قام باعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (ص ١٩٨ ـ ٢٠٨) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبى » وطبقا للتحول الذى طرأ على الحـكم على المـأثورات العربية (قارن ص ١٩٣ ـ ١٩٨ : نقد المـأثورات) يقسـم شـفاللى المؤلفات الغربيـة عن حياة محمـد الى ثلاث فترات (على النحو التالى) :

١ ـ السـيادة المتصلة للتقاليـد الموروثة حتى منتصف القـرن التاسع عشر (شبرنجر) .

٢ ـ عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ ـ عصر النقد المنهجى للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار الى كل من هوننجر وماراتشى وريلاند ،

---

(٦٦) جوزيف هوروفيتس (١٨٧٤ ـ ١٩٣١) مستشرق ألمـانى ، كان أستاذا للعربية فى جامعة عليكره بالهند ، ثم فى جامعة فرانكفورت بألمـانيا . له دراسات عديدة فى الاسلام والأدب العربى ، نشر أو اشترك فى نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها الى الانجليزية أو الألمـانية .

(٦٧) فريدريك شفاللى (١٨٦٣ ـ ١٩١٩) مستشرق ألمـانى ، تتلمذ على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقى فى ثلاثـة مجلدات (جيسن ١٩٠٢) وعنه طبع فى القـاهرة ، اشترك فى نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقـه والتعليق عليه فى مجلدين ـ ليبتزيج ١٩٠٩ ـ ١٩١٩ ـ (المستشرقون ٢ / ٤١٠) .

وبعدذلكيتناول بتفصيل أكثر كلا من جانييه وكوسان دى برسيفال وجوستاف فايل. أماالفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه ودوزى وكرين ورانكه وأوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوث . وأما الفترة الثالثة التى نعيش فى بداياتها فينتمى اليها بصفة خاصة الكتاب الضخم الذى قام بتاليفه (ليونى كيتانى Leone Caetani) (٦٨)

* * *

(٦٨) الأمير ليونى كايتانى (١٨٦٩ — ١٩٢٦) مستشرق ايطالى . كانت لديه ثروة طائلة أنفقها على العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس فى النهاية ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ الشرقى ، فى عدة مجلدات (ميلانو ١٩١١ وما بعدها) وقد خصص منها مجلدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الاسلام فى حوالى ستة مجلدات (ميلانو ١٩٠٥ — وما بعدها) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسريانية والعربية ، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التى لم تنشر بعد ، وتحديد ما ينبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد بالاشتراك مع جوزيبى جابرييلى معجم الاعلام عن شخصيات العالم الاسلامى الذى كان ينتظر أن يتع فى ٣٥ مجلدا . ولكن الموت حال بينه وبين اتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثانى منه (انظر أيضا « المستشرقون » ١/٤٢٩ وما بعدها) .

أسطورة العصر الوسيط عن محمد

١ ـ كواريسميوس (Quaresmius) :

لقد كانت المحاولة الأولى لتناول أساطير العصر الوسيط عن محمد هى تلك التى قام بها (كواريسميوس) فى صورة مختصرة (قارن أيضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذى عاش فيه :

(De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفى القرن التاسع عشر بدأ المرء يوجه قدرا أكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التى تكونت فى العصر الوسيط عن محمد .

* * *

٢ ـ رينـــو (Reinaud) :

وقد صاغ رينو فى نشرته لرواية محمد (Roman de Mahomet) (٦٩) المهمة المطروحة فى هذا الصدد أمام العلم فى قوله : « انه لمن الأمـور ذات الفائدة أن تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب فى صورة متتابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوسـع المرء أن يلحظ فى ذلك الأثر البطىء والحتمى لفعل العصور والأحداث والأماكن ، وبوسعه أن يلاحظ التأثيرات المختلفة التى تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الأخلاقى والسياسى والجوانب الحضارية المتقدمة أو المتخلفة » .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفى البدايـة يقدم لنا لمحة عن التصورات التى اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانييه وجيبون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التى جرت حول ديانة محمد فى الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصـار بعض الخصائص المميزة لبعض هـذه المؤلفـات .

* * *

---

(٦٩) صدرت هذه الطبعة فى باريس عام ١٨٣١ ، والرواية فى الأصل منسوبة الى الكسندر دو بون من القرن الثالث عشر الميلادي .

OBEIKAN.COM

٣ ـ زيوليكى (Ziolecki) :

ونظرا لأن طبعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفدت فقد قام زيوليكى بنشرها من جديد(٧٠) وأضاف اليها مقالة بعنوان « بحوث حول أسطورة محمد فى العصر الوسيط » .

* * *

٤ ـ ادلستان دو ميريل (Edélestand du Méril) :

أما أساس « رواية محمد » لـ (ألكسندر دو بون A. du pont) فانه يتمثل فى « الأساطير الشعرية عن محمد » (otia de Mahomete) لـ فالتيريوس (Waltherius) أو جوتييه الكومبيى(٧١) . وقد نشرها أول مرة ادلستان دو ميريل فى كتابه « الأشعار الشعبية اللاتينية فى العصر الوسيط »

وقد أجمل الناشر فى مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد فى الغرب والشرق . وقام (بروتس Prutz) باخراج ونشر « أساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة أخرى وتناولها باسهاب .

* * *

٥ ـ دى لينسى (Le Roux de Lincy) :

ويقدم لنا (ليرو دى لنسى)(٧٢) بعض النماذج من أسطورة محمد فى العصر الوسيط من أمثال ما ورد فى تاريخ الأسقف (تربين Turpin) (٧٣) ، و « المرآة التاريخية » من تأليف فينسنس

---

(٧٠) صدرت هذه الطبعة فى أوبلن (Oppeln) عام ١٨٨٧ .

(٧١) نسبة الى مدينة كومبين (Compiegne) الفرنسية .

(٧٢) صدر كتاب دى لنسى فى باريس عام ١٨٣٦ بعنوان : كتاب الأساطير .

(٧٣) صدر كتاب تربين بالفرنسية حوالى عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ محمد مشرع العربية .

OBEIKAN.COM

فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض (le Renard contrefait) والكتاب الذى ألفه اليهودى المتنصر الفونس المنتسب الى (اسبينا Spina) بعنوان (Fortalitium Fidei)

* * *

٦ ـ جـــاس (Gass) :

أما جاس (٧٤) فانه يقدم لنا فى البداية لمحة قصيرة عن الجـدل المسيحى لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجـدل الذى يرى أنه يشكل القسم الرئيسى الثانى لدفاع الكنيسة المسيحية الموجـه نحو الخـارج .

وفى قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمـد وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من أمثال جانييه وتربين وأيضا فايل قد اعتمدوا فى الغالب على أبى الفداء(٧٥) وعلى مصادر شرقية اخـرى .

وبعد ذلك عرض فى القسم الثالث الى الخامس تعاليم محمد والاسلام فى مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح وتجسد المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعـل الخـير والحج والقدر . أما الفصل الختامى فانه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء والقدر » .

* * *

---

(٧٤) الكتاب الذى يعرضه بفانموللر هنا من تأليف جاس هو كتاب : « الأرسطية والأفلاطونية فى الكنيسة البونانية ، مع بحث حول معارضة الاسلام فى العصر الوسيط » وقد صدر فى برسلاو عام ١٨٤٤ .

(٧٥) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، سـليل أحـد فروع الدولة الأيوبية فى مصر . ولد عام ٦٧٢هـ بدمشق ، تولى امـارة حماه ، وكان له نشاط علمى ملحوظ ، وقد اشتهر بوجه خاص بوصفـه مؤرخا وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتابه « مختصر تاريخ البشر » وكتابه فى « تقويم البلدان » وقد تناول فى الكتاب الأول تاريخ ما قبل الاسلام ثم تاريخ الاسلام حتى عام ٧٢٩ هـ . وقد طبع هـذا الكتـاب فى مجلدين بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه الى اللاتينية والفرنسـية والانجليزية . أما كتابه فى « تقويم البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام٧٢١هـ.

٧ ـ بروتس (Prutz) :

وقد كانت أكثر الأعمال استفاضة من جانب (بروتس) فى تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحى عن محمد وتعاليمه » وذلك فى الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية »(٧٦) ويبرز بروتس فى بادىء الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الاسلام التى تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذى حدث عن قرب بين الاسلام والمسيحية سواء فى أسبانيا أو فى فلسطين أو فى سوريا . فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم فى حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول . فالصورة التى اتخذها المسيحيون فى الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن كلما ازدادت بعدورة عن طريق اسوأ الخرافات ، وفى النهاية شوهت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخبث الافتراءات .

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل الى معرفة الاسلام الا عن طريق السلطات الكنسية التى كان يهمها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد فى صورة منحطة وفاسدة بقدر الامكان ، فى حين أننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا الا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة فى سلام فى وسط العالم المحمدى ، وبوجه خاص من جانب بعض المبشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسى وريكولدوس دى مونت كروتسيس .

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتس أولا آراء الغرب فى محمد وفى تعاليمه . فبعد المحاولة التى قام بها اليهودى الأسبانى المتنصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن فى بداية القرن الحادى عشر ، تناول هذا العمل بتعمق خاص بطرس الموقر رئيس رهبان (كلونى Cluny) (٧٧) الذى كان صديقا للقديس برنهارد المنتسب الى

---

(٧٦) صدر هذا الكتاب فى برلين عام ١٨٨٣ . ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتييه الكومبينى » من منشورات أكاديمية العلوم فى ميونيخ عام ١٩٠٣ .

(٧٧) بطرس الموقر (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) راهب فرنسى ينتمى الى

(كليرفو Clairvaux) . وقد عمل بطرس الموقر فى البداية على انجاز ترجمة للقرآن الى اللغة اللاتينية(٧٨) . وبالاضافة الى ذلك أمر بترجمة كتابين آخرين أحدهما عن سيرة النبى والثانى عرض للنقاط الأساسية فى تعاليم العقيدة المحمدية فى شكل حوار .

وأخيرا قام بتأليف أربعة كتب « ضد الزندقة البغيضة لطائفة المسلمين » . وهذه الأعمال التى قام بها هذا الرجل الكلونى المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبى ضد الاسلام فحسب بل أصبحت المصدر الرئيسى أيضا للتصورات غير المعقولة التى صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد وتعاليمه . والى مؤلفات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التى نشأت فى العصر الوسيط ضد الاسلام ، سواء أكانت نثرا أو فى شكل شعرى أو فى صيغة أخبار وتقارير حول المناقشات التى جرت ـ زعما كان ذلك أو حقيقة ـ بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفى هذه المناقشات يظهر محمد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وانما أيضا محتالا وضيعا ومن عشاق اللذة(٧٩) .

ومن بين التصورات التى كانت منتشرة بصفة خاصة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل الألوهية . وبالاضافة الى ذلك وصف دين محمد ـ على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية ـ بأنه دين الشرك

= جماعة الرهبانية البندكتية التى شيدت دير كلونى عام ٩١٠ فى فرنسا . قصد الاندلس فيمن قصدها مستزيداً من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلونى فى القرن الثانى عشر مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية .

(٧٨) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٣ م على يد العالم الانجليزى روبرت أوف كيتون بايعاز من بطرس الموقر .

(٧٩) اذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود فى أصله الى أباطيل الأب بطرس « الموقر » فلست أفهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، اذ أن ما قام به ـ من وجهة نظر موضوعية ـ هو افتئات على الحقيقة وجريمة فى حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح .فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟ .

وتعدد الألوهيـة . وقد اتهم المحمديون أيضا ـ دون سند تاريخى ـ بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يهزأ من أمية النبى ويسخر من الراعى السابق للابل والحمير(٨٠) .

ولابد أن يعود هـذا الجهل التام وسوء التقدير للاسـلام ـ رغم الاختلاط الكثير المباشر ـ الى حد ما الى أن التعرف الأول على الاسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها الا قليلا ، أعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع أقدم التقارير التاريخية التى لدينا عن نشأة الاسـلام الى (تيوفانس Theophanes) البيزنطى . وقد عرضه أمين المكتبة الرومانى أناستاسيوس فى كتابه عن تاريخ الكنيسـة . والى هـذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التى قيلت عن محمد فى العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا أشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا « جيبير النوجنتى » Guibert de Nogent (Sous - Coucy) صورة شاملة . وكثيرا ما عرضت اسطورة محمد أيضا فى صور شـعرية . وهكذا قام هيلديبرت المنتسب الى (ليمـو Lemans) والذى كان فيما بعد رئيسا لأساقفة (تور Tours) (توفى عام ١١٣٣م) قام بكتـابة تاريخ محمـد فى صـورة شـعرية معينـة (Distichen) تتضمن ذكريات كلاسيكية . وقد ظهرت فيما بعـد قصيدة مشابهة وهى

---

(٨٠) لسنا فى حاجة الى التعليق على هذه التصورات الباطلة ، فهى ـ كما يقول بفانموللر ـ تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد اى سند تاريخى . وقد كان البيزنطيون ـ كما يقول بفانموللر بعد قليل ـ هم أول من أذاع فى الغرب معظم الأساطير التى شاعت حول محمد والاسلام .

ويبقى أن نشير الى أن أمية محمد عليه الصلاة والاسلام والتى أشار اليها القرآن فى آيات عديدة كانت من دعائم الاعجاز ، فهى مناط فخر وبرهان صدق على دعوته لا مثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للابل أو الغنم فلم يكن فى ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعى الغنم وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم » ـ رواه البخارى ـ ويقول أيضا : « كنت أرعى غنم أهلى » ـ رواه الترمذى ـ وليس فى ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الأنبياء جميعا .

« أساطير محمد لدى فالتيرى » (Otia Walteri de Mahomet) وعلى هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما « رواية محمد » (Roman de Mahomet) التى كتبها (الكسندر دو بون du Pont) ·وفى العرض الذى قدمه لنا أندريا داندولو الفينيسى(Andrea Dendolo)تتجمع عناصر الأساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التى يجب أن توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحيين ·

ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من أساطير وخرافات ومخترعات افترائية للعصر المسيحى الوسيط فى كتاب (فينسينز Vincenz) (المنتسب الى بوفيه Beauvais) والمسمى (المرآة التاريخية Speculum historiale) ·

وهناك حكم أكثر موضوعية الى حد بعيد عن محمد والاسلام نجده لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسى الذى يبدو أنه قد اغترف كثيرا من المصادر الشرقية ، وفى وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة حول نشأة القرآن ·

أما جيرهارد الاشتراسبورجى(٨١) الذى ذهب الى صلاح الدين فى عام ١١٧٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول ـ فان التقرير الذى وضعه حول أخلاق وعادات المحمديين يبرهن ليس فقط على ملاحظات جيدة ، بل يبرهن أيضا على حكم متسامح وموضوعى ·

وهناك حكم أكثر تسامحا وموضوعية نجده فى العرض المسهب لعقيدة المحمديين وحياتهم وأخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ « ريكولدوس دى مونت كروسيز » (Recoldus de Monte Crucius) الذى كان له نشاط فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، والذى عاش سنوات طويلة مبشرا بين المحمديين · ولكن مثل هذه الأحكام والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا فى العصر الوسيط ·

وعلى العموم فان فى وسع المرء أن يدعى « أن الكفاح المرير الذى قاده العصر المسيحى الوسيط بالسلاح وبالجدل اللاهوتى ضد تعاليم محمد وضد أتباعه ، قد تم دون أية معرفة كافية بالخصم ودون أية فكرة

---

(٨١) نسبة الى مدينة اشتراسبورج الفرنسية ·

عن ماهيتــه وطبيعته : فالاسلام الذى انطلق العصر المسيحى الوســيط للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى فى يوم من الأيام » .

تلك كانت الخطوط الرئيسية للعرض المسهب الذى قدمه بروتس ، هــذا العرض الذى كان ينبض بالحيوية عن طريق الاقتباسات الوافرة من المؤلفين المعنيين والذى اكتمل بالأسانيد المصدرية المفصلة وبالأدلة .

* * *

٨ ـ دانكونا (D'Ancona) :

تمثل بحوث (دانكونا) المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد قادته دراساته المقارنة فى الآداب الرومانية الى طرح سؤال حول نوع المعرفة التى كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد(٨٢) .

وعلى أساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط ، تلك الصورة التى عرض شوفان بعض خطوطها ببراعة فائقة فى مؤلفه البيليوجرافى (Bibliographie) (قارن أيضا النقد المفصل لرينان فى مجلة العلمــاء (Journal des Savants) ١٨٨٩ م ص ٤٢١ ـ ٤٢٨) .

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد (الراهب بحيرى)(٨٣) والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين

---

(٨٢) يرجع فى ذلك الى البحث الذى نشره دانكونا فى العدد رقم ١٣ من المجلة التاريخية للآداب الايطالية بعنوان « اسطورة محمد فى الغرب » من ص ١٩٩ الى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٨٣) بحيرى : راهب نصرانى ، كانت له صومعة فى بصرى من أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الثانية عشرة من عمره مع عمه أبو طالب ، فعرفه ببعض ملامحه وقال : « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .

ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصــلاة والسلام لبحيرى رغم انه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت فى بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند الى هذا الراهــب السورى الا مجرد قصة من نسج الخيال » .

(راجع : مدخل الى القــرآن الكريم للدكتور محمــد عبد الله دراز ص ١٣٤ ــ هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظــر كتابنــا : الاستشراق ص ٨٥) .

دانكونا الوحدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطى (تيوفانس Theophanus) . وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على انه زنديق ، وأنه آريوس جديد أسوأ من آريوس الأول(٨٤) . واسطورته تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من أمثال (سيمون ماجوس S. Magus) أو (نيكولاوس Nikolaus) .

---

(٨٤) آريوس (٢٧٠ — ٣٣٦ م) ولد فى الاسكندرية وكان قسيسا بها ، وقد عارض أسقف الاسكندرية الذى كان يذهب الى القول بأن المسيح ابن الله وانه مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس الى القول بأن المسيح غير مساو للآب فى الجوهر والعظمة وانه مخلوق بارادة الآب حادث غير أزلى .... الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الاسكندرية خرج قاصدا فلسطين وسوريا فتحزب له أساقفة كثيرون فى تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لمناقشة تعاليمه منها مجمع الاسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقية عام ٣٢٥ بأمر الامبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة فى النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح الها وقالوا بالتثليث فان تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت فى حياته ، واعتنق الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بعقد مجمع فى مديولان (ميلان) حضره أكثر من ثلاثمائة أسقف،وتبين أن أكثرية الآراء فيه كانت للآريوسيين . وقد بقيت التعاليم الآريوسية ممتدة فى اسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وقع الانشقاق بين الآريوسيين وانقسموا الى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفى أيام ثيودوسيوس الثانى صدر الأمر باستئصال الآريوسيين وابادتهم ، وكان ذلك فى عام ٤٢٨م . ويقال ان نسرفتس أحيا تعاليم الآريوسية فى القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وسببت ازعاجا للكنيسة التى سارعت بالقضاء على معتنقيها . (راجع دائرة معارف البستانى) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأى الذى كان يقول به آريوس هو الرأى الذى يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التى ترفض التثليث وترفض الوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاتهام الموجه الى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصطنعة ..

وتضيف المؤلفات الشعبية الى ذلك افتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك أقوالا ايجابية أيضا . ونظرا لأنه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذى يستحقه ـ نظير خدماته التى أداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الايمان باله واحد ـ فقد تحول الى منشق على الكنيسة(٨٥) .

ويبين دانكونا بعد ذلك كيف أن جزءا من أسطورة محمد ـ ذلك الذى يتصل بأصل محمد وعلاقته بالمسيحية واليهودية ـ يبتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية(٨٦) . ولكن بمرور الزمن تبتعد الأسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد مشابها لنيكولاوس و (بلاجيوس Pelagius) ، أجل ، فالبعض كان يرى أن الاسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ! وأخيرا تبقى الأسطورة عند موت محمد مع احساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنازير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين(٨٧) .

* * *

ولبعض العلماء نظرة ثاقبة فى تفسير لفظ « الآريسيين » الذى ورد فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل قيصر الروم ، والتى جاء فيها : «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم الأريسيين» ويذهب هذا البعض من العلماء الى أن المقصود بالاريسيين هنا هم أتباع آريوس القائلين بالعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكى أقرب الى العقل والمنطق من كل ما عداه من تفسيرات أخرى .

(٨٥) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

(٨٦) هنا اشارة خفية الى أن هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة فى معظم الدراسات الاستشراقية حول الاسلام .. (انظر فى ذلك كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها) .

(٨٧) الاسطورة لا عقل لها ، وهى فى الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الامر الغريب هنا هو أن الغرب كان يصور لنفسه هذه الأساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما تحمله هذه الأساطير من أمنيات كاذبة ترضى فى نفسه نزعات معادية للاسلام ونبيه .

٩ ـ كاستری (Castries) :

يتناول (كاسترى)(٨٨) فى كتابه عن الاسلام فى ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الاسلامية » . ويزعم خطأ أن هـذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . واذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمـال المشار اليهـا لكل من ليرو دى لنسى ، ودو مبريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

ولا يقدم لنا عمل كاسترى شـيئا جديدا الا القليل ، وحكمه على المعرفة التى كانت لدى لاهوتيى العصر الوسيط عن الاسلام ليس دائمـا حكما صائبا (قارن النقد التفصيلى لرينيه باسيه فى مجلة تاريخ الأديان Revue de l'histoire des religions)٣٥ ، ١٨٩٧ ص ١٢١ ـ ١٢٣) .

* * *

١٠ ـ شرودر (R. Schroeder) :

أما (ر . شرودر) فانه قد جمع الخطوط الرئيسية لأسطورة محمد فى العصر الوسيط . كما تتمثل فى الشعر الفرنسى القديم(٨٩) .

وحسبما ورد فى هـذا الشعر فان محمدا وحده هو صاحب نظرية التعدد فى الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التى يقول بها المسلمون ،

---

(٨٨) هـ . دى كاسترى (١٨٥٠ ـ ١٩٢٧) ، ورد فى ترجمته لدى نجيب العقيقى أنه كان مقدما فى الجيش ومهتما بالدراسات المغربية ، وأنـه قد اشترك فى اصدار مجموعة بعنوان « مصادر غير منشورة عن تاريـخ المغرب » . ولم يذكر له العقيقى كتابا عن الاسلام . ولكن بفانموللر يعتمـد فى حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الاسلام بعنوان (L'Islam) وقد صدر فى باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال ايجابية عن الاسلام وقد اتهم بأن رأيه فى محمد ايجابى أكثر مما ينبغى (انظر فى ذلك البحث الذى نشرناه فى العـدد الثانى من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ، ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

(٨٩) يرجع فى ذلك الى كتاب شرودر الذى صدر بالألمانية فى ارلانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والخرافة فى الأشـعار الفرنسـية القديمة » .

OBEIKAN.COM

وفى الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد أبدا بوصفه نبيا ، وانما يظهر باستمرار بوصفه الها ، وعلى وجه التحديد بوصفه أعظم وأقوى الآلهة الوثنية . وقبل أن يتحول محمد الى هـذا الاعتقاد كان مسيحيا مؤمنا ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمـد لدى الوثنيين خالق هـذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال فى شـكل عبادة التماثيل ، هـذا الشكل الذى اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع اله المسيحيين فان محمدا محاط أيضا فى السماء بالقديسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسـة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسـة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل أسوارها قبر الههم . أما العيد الكبير السنوى الذى يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

وأشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل فى راى الجانبين فى الزواج . والمحمديون يكرهون اله المسيحيـين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لأتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشككون بشتى الطرق الممكنة فى طهارة محمد من الذنوب أثناء حياته الأرضية . وتروى بشغف خاص قصة موته الذى برثى له ـ فالخنازير قد وجدته مخمورا فوق كومة من القمامة فالتهمته(٩٠) .

* * *

١١ ـ دريسباخ (Dreesbach) :

اهتم (دريسباخ) فى رسـالته للدكتوراة برسم صورة للشرق وساكنيه كمـا صورهـا أدب الحمـلات الصليبيـة الفـرنسى القـديم (٩١) .

---

(٩٠) الاسطورة ـ كما سبق أن أشرنا ـ لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله عليه وسلم وحول دينه فى عصر كان يعتمد فى فهمه للاسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التى روجت لها السلطات الكنسية . واعتقد أن القارىء لا ينتظر منا أن نقف طويلا عند مناقشة ما جاء فى هذه الأساطير من تفصيلات ، اذ يكفى أنها أساطير لا أصل لها .

(٩١) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية فى برسلاو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى القديم للحملات الصليبية » .

فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة (chansons de geste) التى كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فانه بوسعنا أن نعرض صورة حقيقية عن الشرق من أدب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هذا الأدب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح أننا لا نزال نجد فى هذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الاسلام ، ولكنهما مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جدا مع الحقيقة التاريخية . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه الها وانما بوصفه نبيا ومؤسسا للاسلام ، وقد أصبحت أهم وصاياه الرئيسية وأهم النقاط فى تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السنة والشيعة . وهناك اهتمام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شيخ الجبل »(٩٢) .

* * *

١٢ ـ دوتيه (Doutté) :

يتناول (دوتيه) الخرافة التى انتشرت انتشارا واسعا فى العصر الوسيط والتى تقول بأن محمدا كان فى الأصل كاردينالا رومانيا يسعى

---

(٩٢) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الاسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية فى الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من أعدائهم بالاغتيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلى « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣ هـ . ويقال انه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون يتمتعون فيها بالملاذ التى يتوقعون التنعم بها فى الفردوس . ولكن الذى لا ريب فيه أن جنتهم تلك كانت محض خيال يصوره لهم الحشيش الذى كانوا يدخنونه .

وفى عام ٥٣٥ هـ فتحوا عددا آخر من الحصون فى شمال بلاد الشام وغيرها .. وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدعى « شيخ الجبل » وقد قضى المغول عليهم ، واحتل جنود هولاكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤ هـ ولكن الضربة القاضية التى قضت تماما على السلطان السياسى لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المماليك بيبرس عام ٦٧١هـ . (راجع دائرة المعارف الاسلامية) .

OBEIKAN.COM

للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه أسس الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية(٩٣) .

* * *

١٣ ـ باســـيه (Basset) :

أما (باســيه)(٩٤) فقد تناول بالبحث العميق أسطورة أخرى عن محمد كانت هى الأخرى منتشرة أيضا انتشــارا واسعا فى العصر الوسيط ، وتقول هــذه الأسطورة أن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم كل تماثيل الآلهة التى كانت قائمة فى أسبانيا ما عدا تمثالا واحدا فقط كان موجودا فى (قادس Cadiz)(٩٥) . ويروى المسلمون أن محمدا نفسه قد قام بعمل هــذا التمثال أثناء حياته باسمه هو وأنه بفضل ما لديه من فن سحرى قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هــذه الكتيبة بما لها من تأثير على منع تحطيم هــذا التمثال من جانب أى أحد يريد تحطيمه .

وقد أثبت باســيه بالتفصيل انتشار هــذه الأسطورة فى المصــادر المسيحية والعربية والاسكندنافية ، وبرهن على أن الأمر هنا يدور ـ على الأرجح ـ فى الأصل حول تمثال لهرقل ظن المحمديون خطــأ أنه يرمز الى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين الى المسيحيين

---

(٩٣) لقد تناول ادموند دوتيه هذه الموضوعات فى كتابه بالفرنسية « محمد الكردينال » الصادر فى باريس عام ١٨٩٩ .

(٩٤) رينيه باسيه (١٨٥٥ ـ ١٩٢٤) مستشرق فرنسى ، نشر العديد من الأبحاث والدراسات الاسلامية والعربية والبربرية والحبشــية فى مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، وأسهم فى دائرة المعارف الاسلامية ، وكان عضوا فى العديد من المجامع العلمية . والبحث الذى يشير اليــه بفانموللر هنــا هو البحث الذى نشره باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ فى مجلة العلماء من ص ٣٩١ حتى ص ٤٠٢ .

(٩٥) قادس (Cadiz) مدينــة اســبانية وهى عاصمــة اقليــم قادس ، ويسكنها حوالى ١٣٦,٠٠٠ نسمة ، وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ انشائها الى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

فى أسبانيا . ومن هناك تسربت الى الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط(٩٦) .

* * *

(٩٦) اذا رويت هذه الأساطير على ألسنة الغربيين ودونت فى مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال ان المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حرم التماثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها محاكاة لخلق الله من ناحية أخرى . وقد ورد فى هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » . وقوله : « يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وفى رواية أخرى : « الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد — أن ينسب المسلمون الى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أوعز بصنعه ؟ وقد يقال ان بعض العلماء فى العصر الحديث قد قال بتأويل مثل هذه الأحاديث . ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين فى الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتحرجون حتى اليوم — بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على ظهور الاسلام — من مجرد ظهور شخصيات تمثل دوار أحد من الصحابة فى مشاهد هادفة ، ناهيك عن اقامة تماثيل لهم . فما بالك اذا كان الأمر يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . واذا كان هذا شأن المسلمين اليوم حيث تنتشر التماثيل فى كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا مألوفا فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفى بلاد أحرقت كتاب الاحياء للغزالى ظنا منها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الاسلام .

ان الأمر الأقرب الى المعقول هو أن هناك أسطورة كانت قائمة قبل أن يدخل المسلمون الى هذه البلاد ، ثم حورها الأوروبيون أنفسهم — وايمانهم بالأساطير كان شديدا فى العصر الوسيط — وروجوها على ألسنة المسلمين .